



حين تتوهج الذاكرة

عن قصة الشهيد^(*)

فايز حمد كنعان بوعركي

بقلم

د. فاطمة يوسف العلي

(*) تمت الاستعانة بحديثات الشهيد من كتاب الدكتور ببيان التركي.

حين تتوهج الذاكرة

- ١ -





953.8 العلي، فاطمة يوسف.
حين تتوهج الذاكرة: قصة الشهيد فايز كنعان بوعركي / بقلم فاطمة يوسف العلي
ط5 - الكويت: مكتب الشهيد، 2013
21ص : 21سم. - (بصمات في تاريخ الكويت)

- 1 - الكويت - تاريخ - الاحتلال العراقي (1990/8/2 - 1991/2/26).
2 - الشهيد فايز كنعان حمد بوعركي. أ - العنوان.
ب- السلسلة

Depository Number: 2005/00354

ISBN: 99906 - 84 - 05 - 7





«إهداء»

إلى أرضي الصغيرة ...

إلى حبي الكبير ...

إلى من يستحق التضحية والعطاء ...

«إلى الكويت»

مكتب الشهيد

حين تتوهج الذاكرة

- ٣ -





إن كانت المعاناة والآلام بما يصاحبها من آمال وكبرياء تتفتح أدباً وشعراً
وفناً، فذلك هو حال الحركة الأدبية والثقافية في دولة الكويت التي
انتصرت وجدانياً وأدبياً للتطورات السياسية والاجتماعية والإنسانية التي
عاشها العالم العربي منذ منتصف القرن الماضي، مروراً بأشهر الاحتلال
الصدامي لبلدنا الحبيب الكويت.

سجلت الحركة الأدبية والثقافية في بلدنا ظهور أعداد كبيرة من العمالقة
الرواد والمبدعين الكويتيين الذين تركوا بصمات واضحة في مسيرة العلم
والثقافة والفكر والفن والأدب، وأجادوا فن الكتابة والتعبير شعراً ونثراً.

في مجموعتنا « **بصمات في تاريخ الكويت** » أراد مكتب الشهيد
أن يسجل للتاريخ فورة غضب الكويتيين على المحتل، وإرادة النصر على
الغاصب مهما كانت عدته وعديده، والرغبة في الشهادة فداءً للأرض
والعرض. فعندما تحقق النصر وطُرد الغزاة حكمت اليراعات الكويتية
قصص بطولات، ووثقت معارك شرف وملاحم شرسة، خاضها ضد المحتل،
شبان وشابات بصدور عامرة بعشق الكويت وبقلوب مؤمنة بنصر الله.

« **بصمات في تاريخ الكويت** » تضم باقة من أدب النصر على الاحتلال،
وصفحات من الكفاح لتحرير الأرض. وهي هديتنا لأبنائنا وإخواننا من هذا
الجيل ومن الأجيال القادمة في بلدنا الكويت، وفي كل مكان من هذا
العالم، نبراساً لتصدي الحق وانتصاره على الباطل، وشاهداً على حب الوطن
وتقدمه، ووفاء لمن ضحوا بأرواحهم فداءً للكويت.

الوكيل المساعد

المدير العام لمكتب الشهيد

فاطمة أحمد الأمير





ثم قالت:

- إنني أثق بك، على هذا الأساس قبلت الخطبة .. تتهد، تتهدت بحرارة: وما الضرر لو كان عقد القران قبل سفرك.

- نظرت إليه بعتاب، قالت بهمس: فايـز... هل تعود إلى هذا الموضوع؟

- دع القدر يقول كلمته!!

خفضَ بصره إلى الأرض، قال بألم: سواء تركنا القدر يقول كلمته أو لم نستمع إليه .. فهو صاحب القول الفصل.

قالت بثقة: آمنت بالله..

قال: تمنيت لو كانت ظروفـي سمحت بأن أسافر معك.. هكذا تسافرين وحيدة؟

- وهو صاحب في السفر.

- سبحانه وتعالى..

تلامست يدهما على يد الحقيبة، تركتها له، دفعنها أمامه قليلاً ثم حملها، وبعد دقائق كانا في سيارتها، وكانت هي التي تقود، وكان المطار وجهتها.. وقال لها في الطريق: سيكون لي اتصال كل ليلة، وكل صباح.. الساعة العاشرة بتوقيت الكويت .. ليناسب مواعيدك هناك. أرادت أن تبث الطمأنينة في نفسه، فأكدت:

- أنا بخير، وسأتصل أنا بك بمجرد الانتهاء من التحاليل واستلام صور الأشعة والتقارير .. وحينئذ.. قاطعها:

حين تتوهج الذاكرة





سأطير أنا إليك.. أقسم أن أفعل، وهديّة فرحتي بك من
(هارودن).

قالت ضاحكة: بل تفاعحة مغروسة في السكر ثمنها عشر بنسات
تباع على مدخل لندن بـرج. وضغط على يدها.

كانت أختها الوحيدة الأصغر منها، قد سبقتها إلى المطار مع
بعض زميلاتها المدرسات، وكان الوداع باسمًا، يحاول أن يتغلب على
توقعات الخوف ومشاعر القلق ذهبت الأختان، وعادت الزميلات،
وركب هو سيارتها عائداً بها إلى منزلها، وهناك عاد إلى سيارته..
وكان هاتفه يرسل إشارته بإلحاح.. كان في حالة لا تجعله يرحب
بأحاديث التلفزيونات.. لم يعباً به.. حتى توقف تلقائياً.. وشرد خياله
معا في رحلتها القلقة.. سلوى ابنة العم، نشأ مثل قيس وليلى،
يلعبان ويتخيلان، ثم فرقت بينهما المدارس، وظهور براعم الأنوثة
هنا، وعلامات الذكورة هناك، ولكن الحلم ظل يسكن القلب، ويلهو
على هواه، ويلوب.. يلوب.. ليعود إلى نقطته الأولى، وحب الطفولة
الجميل.. ولكن ماذا بقي من الطفولة؟ كل شيء تغير.. كل شيء
تغير إلا هو.. إلا هوى القلب بابنة العم؟؟

لم يعرف كيف وصل إلى ديوانية صديقه وليد الهملان.

سيارته تعرف طريقها.. فقط عليه أن يضع قدمه فوق دواسة
البنزين، وتقوم هي بالباقي.. فوجئ بوليد واقفاً أمام الديوانية،
قفز من فوق الدرجة الأخيرة واحتضن مقدمة السيارة، وهو يقول
بمرح مقصود:





فايز كنعان بوعركي عندنا؟ يا مرحبا يا مرحبا..
«ما أدراه أنني كنت أفكر في قيس وليلى؟ هل للقلوب لغة خاصة
بها؟ فماذا تفعل سلوى الآن؟ بعد ساعات تكون في (لندن كلينك)،
ساعات أخرى أو أيام ونسمع كلمة أخيرة في موضوع الصداق
وخفقان القلب. لو أن الفداء يقبل يا سلوى لوهبتك عمري لأنك
أغلى من العمر».

فتح الباب.. جذب المفاتيح من (التابلوه)، أمسك بيده:

- انزل، لا تقل إنك مشغول، أعرف من أين جئت..

- ولا تعرف بماذا أشعر؟

- وأعرف، ولهذا يجب أن تنزل، ولن تغادر الديوانية حتى تكون

في أحسن حال.

- ذاك زمان..

- في كل وقت.. هذي مسألة إرادة..

- إرادة..

التقت تتهيدتان، كل من الصديق يفكر في اتجاه، كان وليد
الهملان تلقى مكالمات من أصدقاء تحمل إليه شائعات عبور قوات
عسكرية الحدود الشمالية.. ولكن وسائل الإعلام التي لم تذكر شيئاً
عن الموضوع جعلته يتحفظ في إخبار فايز بمجرد وصوله، خصوصاً
أنه عائد من وداع خطيبته التي سافرت للعلاج بعد أن أخذ فايز
مكانه المعهود على القنفة^(١)، ولم يكن في الديوانية غير صديقه،
الذي أخذ يتشاغل بصب الشاي، قال فايز:

(١) الأريكة:





- رأسها صخر.. يابس، لو سمعت كلامي ووافقت على إتمام الزواج قبل السفر، لكنت حققت لي، ولها أملاً يرفع معنوياتنا في هذه الظروف الخطرة.

والتقط وليد الكلمة وقال قبل أن يفكر في معناها: خطرة!! هل وصلك شيء عن الحشود.. والحدود؟! إذن الكلام صحيح.

- الكلام؟ أي كلام؟

عرف وليد غلطته بعد فوات الألوان.. ولا مفر من البحث عن الحقيقة، وفايز ضابط وإذا لم يعرف الآن، فسيعرف بعد دقيقة.. أو بعد ساعة.. تحركت شفتاه بغير كلام.. ثم تصاعد رنين الهاتف في الديوانية، وكان الصوت على الطرف الآخر مسموعاً بوضوح:

- ديوانية الهملان؟ وليد الهملان..

- نعم

- الملازم أول فايز ترك رقمكم في القيادة.. هل هو موجود؟

- موجود

وانقض فايز على السماعه..

- أنا.. أية أوامر؟

واتسعت عينا وليد، أما فايز الذي كان يتخيل سلوى في الطائرة يتصور أنها تكاد تهبط (هثرو) الآن، فقد توهجت الذاكرة بالمتوقع.. ها هو خط المطلاع يشتعل ناراً.. ها هو فايز يتقدم بمدرعته فيلقي الحمم على المعتدين.. ها هي سلوى تقضى ليلة في المستشفى وهم هناك يشفقون عليها فلا يخبرها أحد بما تعرض له وطنها من





عدوان.. لكنها الآن مطمئنة بخصوص المرض.. أما الوطن فله رب يحميه ورجال يدافعون عنه.

فتح (دبة)⁽¹⁾ السيارة ورفع الغطاء، وسحب حقيبة الخدمة العسكرية الميدانية، وأعاد غلق السيارة. سلم المفاتيح لصديقه:

- لن أكون بحاجة إليها، فقط وصلني بسيارتك إلى منزل الملازم أحمد الطراروة.. سيأخذني معه في «الجيب» إلى مقر اللواء.

تحرك وليد في اتجاه سيارته دون أن يجد كلمة مناسبة لكنه كان يفكر:

- إذا كان هذا واجب الضباط.. فما واجبي، وأمثالي، وليست لنا تجربة سابقة في هذا الاتجاه!

تطلع نحو السماء، في الوقت الذي كان فايز يفتح أربطة الحقيبة ليراجع المحتويات..

بدا أن كل شيء قد انتهى.. قبل أن يبدأ.. فقد ذهباً إلى مقر اللواء السادس فوجداه في يد العدو، فتجنبنا الطريق الرئيسي واستمرا في الاتجاه شمالاً، ليعانيا كثافة الزحف وقوة النيران، بحيث يكون التصدي لها انتحاراً، ليس أكثر.. قال فايز لزميله: نريد شهادة ميلاد..

(1) صندوق السيارة الخلفي.





تؤكد أنه مدرس في مدرسة ابن رشد!!! حاول وليد أن يجد ثغرة للابتسام، حتى لا يموت قهراً.

- ولماذا ابن رشد بالذات يا ولد بوعركي؟ لأنها في الفيحاء..
 قريبة من بيتكم؟ آ .. نسيت .. وقريبة من بيت الخطيبة العزيرة ..
 حتى في التزوير تريد أن تكون قريباً منها؟
 - بصراحة لم يخطر هذا ببالي.. وأنا لن أقيم في فيلتنا.. لكن
 تريد أن تعرف؟
 يا ليت..

- ابن رشد كان فيلسوفاً.. وموقفنا الحالي يحتاج إلى فيلسوف
 لكي نفهم معنى ما يحدث الآن..
 - فعلاً يا فايز.. شيء لا يصدق..

- شيء خارج العقل.. لأنه ليس له أي مبرر حقيقي.. لكن إذا
 تحول الأسد أمام عينك إلى كلب مسعور.. فهل تظل تعامله على أنه
 ملك، أم تبعده عنك بعضاً أو حجر.. فإذا اقتحم عليك دارك.. فلا
 مفر من ضربه بالرصاص.

- كما يصطادون الثور في حلبة المصارعة.. سهم من هنا.. وسهم
 من هناك .. وهو مجنون باللون الأحمر، حتى يغرس قرنيه بنفسه في
 (طوفة)^(١) تفجر رأسه.

وردد وليد: سهم من هنا.. وسهم من هناك.. نعم.. هذا وقت
 العمل.

وبعد تردد أمام قسوة الصمت وصعوبة الكلام.

(١) جدار





- خطيبتك اتصلت بنا بعد أن اتصلت بكم وطبعاً.. لم يرد أحد..

- كلمتها؟

- قلت لها إنك بخير، وكذبت وليسامحني الله.. قلت إنك اتصلت من الصليبيخات.

- سبحان الله. أنا كنت مختفياً في الصليبيخات، وهناك غيرت هياتي واستخرجت بطاقة ابن رشد.

ابتسم، كنجمة وحيدة في سماء ملبدة:

- سامحني الله. قالت إن الفحوص الأولى جيدة.. وإنها تأخذ دواء بسيطاً جداً، لكن الصداع تراجع.. بنسبة كبيرة.. و.. و...

- لماذا تسكت..

- آه.. ماذا أقول؟ بكت يا فايز.. بكت بدموع غزيرة.. تقول لو أنني سليمة وخرجت من المستشفى.. أين أذهب.. وكيف سأرى فايز؟!

كز على أسنانه، نظر إلى أعلى، حبس دمعة تغالبه.

وضع يده على كتف وليد:

- ستعود إلى هنا طبعاً.. (وتوهجت الذاكرة) وستراني كما كانت تراني دائماً.. إن شاء الله..

- هيا بنا..





وهل يستطيع أن يمر أمام المدرسة، أن يتسلل إلى المخفر.. ويركز انتباهه على الهدف دون أن تتحرف نظراته إلى بيت سلوى المقابل للمدرسة، وبيت أسرته خلف المخفر.. هل يستطيع؟

توهجت الذكريات لكنه أخدمها بقوة، أوقف سيل المشاعر، وهو يتحسس الرشاش تحت مقعده في السيارة، لعله يذكره بأنه اللغة الوحيدة المعتمدة الآن، ولعله يتذكر أنه لا شيء أعلى من الوطن، ما أهمية مدرسة أو مخفر.. ما أهمية وجودي أنا بالذات؟ المهم أن نكون .. أن يكون في المدارس أطفال، وفي الشوارع سيارات، وفي المصانع والمؤسسات.. بشر.. رجال .. ونساء.. يقولون كما تقول الإذاعة كل يوم.. هنا الكويت.. أما فايز كنعان بوعركي.. فإنه مجرد شخص.. واحد، حياته في أداء دوره، ولا بد أن يؤديه.

توهجت الذكريات.. لم استطع أن يخدمها.. إنها هناك.. لا سبيل إلى الاتصال، يرمي بنفسه على الخطر.. وهي تعيش خطرها الخاص.. ترى ماذا قالوا لها؟

وهي حين تحصل على البراءة من المرض تستطيع أن تقول: إنني سعيدة الآن؟ أم أن هذه العبارة محرمة علينا حتى يرحل العدو عن الديار.

إنها تندثر حتى في غيابها، تضعه تحت عينها وهي نائمة في سرير مرضها، لقد تسلل إلى مدخل بيتها، من زاوية كراج سيارتها، أخذ يراقب حركة الجنود الذين يحتلون المدرسة.. عدد الحراسات، ومواقعها، تسليحها، درجة الاستعداد، أوقات استبدال الجنود.. سجل هذا كله في ذاكرته المتوهجة.. وهو يستعيد اللحظات الفاصلة في عمليات سابقة.. حين اعترضوا رتلًا من الشاحنات على الدائري





الرابع، ودمروا حمولاتها المنهوبة من بيوت الكويت، وقتلوا الجنود للصوص الذي يحرسون المسروقات، وتذكر ليلة ذهب إلى بيت أخته في مشرف، وأراد سحب كمية من القنابل الخفيفة المخبأة عندها، فوجدها قد حزمتهما في كرانيش الحجر الأردني الذي يطوق أعلى الفيلا من الخارج، وكان وجود هذه القنابل في مرأى العين على الشارع، سبباً في عدم الانتباه إليها، ولكنه لم يستطع الحصول عليها إلا بعد نزول الظلام، إنه يتذكر بتوهج الذاكرة كيف أخذ يتأمل تلك القنابل، ويخاطبها كأنها فلذات كبده، ويناجيها كمعشوقته.. أن تذهب إلى أهدافها، أن تقوم بواجبها.. وقد أرسلها إلى مقر مخابرات العدو في قصر نايف، وإلى استعلامات فندق انترناشيونال، وإلى مدخل نادي كاظمة.. وستكون الضربة الكبيرة لمدرسة ابن رشد ومخفر الفيحاء.. الاحتفال الكبير بمناسبة مرور خمسين يوماً على الاحتلال.. نعم لا بد أن يدوقوا بعض ما أذاقوه لشعبه الطيب المسالم، ولا ثمن للدم غير الدم.

عاد إلى مجموعته في موقع تلاقيهم ومكانه، بدأوا بتبادل الأخبار حيث لا يسمح لهم بالكلمات الهاتفة خوفاً من التجسس عليهم، وبدأ استعراض جدول الأعمال: أسماء الشباب الراغبين في الانضمام إلى المجموعة، والسماع لرأي كل عضو في الشخص، وتقويم نشاط المجموعة طوال الأسبوع الماضي، وآخر أخبار التنسيق بين مجموعات العمل الفدائي، وجهد العضوات في إمداد البيوت المحتاجة ببعض ما ينقصها من مال أو طعام، ومحاولات الاتصال بالذين حملتهم ظروفهم على البقاء في الخارج لتنظيم التعاون، وإعداد حملات دعائية لتبوير الرأي العام وفضح ممارسات العدو ووحشيته..





لقد انتهى كل هذا سريعاً، وكأن أعضاء الخلية السبعة في سباق يلهثون ليصلوا إلى نقطة محددة للاستراحة وهي عملية المدرسة والمخفر.. وهنا قال وليد الهملان:

- طبعا الأخ فايز قام باستطلاع المطلوب.. ولكن ليسمح لي.. نريد استطلاعاً آخر.

وقبل أن تظهر الدهشة على وجوه الجميع، وأولهم فايز نفسه، شرح وليد قصده.

بصراحة (يا الربيع)^(١).. أنا ما أشك ولا واحد بالمائة في قدرة فايز بوعركي على الاستطلاع ودقة معرفته بكل شيء.. كل شيء.. حين كرز عبارة «كل شيء» تزايدت الدهشة وأصبح الهدف أكثر غموضاً، ولذلك سارع:

- الذي أقصده أن هذه المنطقة والمدرسة والمخفر، معروفة لفايز بالشبر، وهذه ميزة ومشكلة، ميزة أنه يعرف كل نقاط الاتصال والعبور بين القطع والمنازل والمخازن.. إلى آخره.. وممكن أن يفيدنا جداً في هذا الجانب، لكنه.. وهذه المشكلة سيتصرف في رسم الخطة وكأن كل واحد منا يعرف نفس الشيء، وله اطلاع على كل الجوانب.. وهذا ليس صحيحاً.. اختصر فايز الموضوع وقال مؤمناً.. فهمت.. موافق.. تريد أن تذهب.. الشرط اليوم أو الغد قبل أن تأتي ليالي القمر.. ظلام الليل هو حليفنا المتعاطف لابد من التنفيذ في مدة يومين على الأكثر.

(١) أيها الأصدقاء والأصحاب.



قال وليد: أنا لا أصلح للاستطلاع، لكن إذا كان هذا أمراً.. فأنا موافق.. تدخل زميل ثالث، وقال: ليس في العمل التطوعي أوامر.. نحن نركب في زورق واحد، وحياة أي واحد فينا تهمنا جميعاً بنفس الدرجة، وقال:

سأقوم أنا بعملية الاستطلاع الثاني ما دمتم موافقين من حيث المبدأ.

كان وجود وليد في الاجتماع داعياً لتذكر مواقف قديمة، يوم سافرت سلوى، يوم تحدثت إلى وليد حين لم يرد هو عليها، ولكن ماذا جرى لها وكيف تعيش هناك؟ وماذا قال لها الأطباء؟ وماذا تعرف عنه.. وهل تعتقد أنه نسيها؟ وأخذه وليد من يده وخرجاً معاً، وجلسا متجاورين في السيارة، وقال فايز بهدوء كأنه يتجول أو يقصد مكاناً قريباً لكنه كان في طريقه إلى منطقة صبحان لاستقبال كمية من الأسلحة أمكن تهريبها من مخازن خفية مملوكة للجيش الكويتي وأخفاها هناك حتى تتاح فرصة إدخالها إلى المدينة.

لاحظ وليد أن لدى فايز ورقة معينة في درج السيارة. فكر أن ينبهه إلى خطورة الإبقاء على أية ورقة.. أخذهما الحديث بعيداً حيث كانت آلام الغزو قد أخذت شكل الداء المستعصي، كان يظن أنه لن يستمر أكثر من أسبوع، وها هي خمسون يوماً تمر، وصخرة البلاء جاثمة على الصدور، ولا بد من عمل كبير، لأن هذه الضربات المحدودة لن تقوض الغرور المتجذر، وكان يفكر: هل يؤدي التوسع في تسريب الأسلحة من مخازن الجيش إلى إمكانية القيام بعمل كبير؟

- قف.. أوراك.. -



وأطلت فوهة الرشاش ليس بينها وبين رأس فايز أكثر من شبر
و (السونكي)^(١) من الناحية الأخرى موجهاً إلى صدر وليد.

أخرج فايز هويته، وأوراق السيارة ورخصة القيادة.

قال أمر قاطع السيطرة كل ما معك من أوراق.

أعطاه حافظه نقوده بكل ما فيها من أوراق مقرونة بابتسامة
تغريه بنهب ما فيها، وهو يقول: هذا كل ما معي.. ضرب حافة
باب السيارة بالسونكي وهو يقول: كل ما معك.. وليس كل ما في
جيبك.. أقول.. انزلا، وسنقوم بالتفتيش.

كانت تلك الورقة في الدرج تحمل نتائج استطلاع للمخفر
والمدرسة.. حين رآها أمر قاطع السيطرة.. ابتسم وجهه وقال:
(هلا بالضيوف العزاز).. تفضلوا معنا.. على الفور قال فايز.. خير
إن شاء الله..

- خير..

- السبب؟

- لا تعرف؟ فقط سؤال بسيط عن ورقة صغيرة.

- برياطة جأش.

- زين؟ وهذا ما ذنبه؟

- أنتما شريكان..

(١) الحرية التي تركب فوق البندقية.





- كيف يكون شريكي وأنا لا أعرفه؟ إنه عابر سبيل طلب مني أن
أوصله إلى الدوار.. فأشفقت عليه.

- لا مانع.. يقول هذا في التحقيق.

إنه الآن يعرف لماذا وضع الورقة في الدرج ونسيها.. حين توهجت
الذاكرة بالوطن.. غابت التفاصيل، حين توهجت الذاكرة بالألم الكلي
للناس.. اختفت أوجاعه.. حين توهجت الذاكرة بضرورة عمل مزلزل
كبير، هانت في نظره كل العمليات التي قام بها.. حين رأى بعين
الخيال كيف سيحيل المدرسة والمخفر إلى مقبرة للمعتدين.. لمعت في
الأفق صورة سلوى عائدة إلى بيتها.. وتراءت له سيارتها التي أوصلها
بها إلى المطار وقد عادت تقف من جديد في موقعها المألوف.. لقد
نسى في هذه اللحظة أن السيارة نفسها اختفت قبل أن يعود هو من
اختفاء الصليبخات.

تتوهج الذاكرة الآن بالمجاهدين القدامى في زمن بعيد.. قريب..
بلال في رمضاء مكة، عمار بن ياسر يجلد بالسياط.. إنه يتعزى
بهذا عن خلع أظافره.. عن تعليقه من ساقيه، عن حرمانه من الطعام
والشراب.. عن صب الماء على رأسه طول الليل حتى لا ينام.. لكنه
أبداً لا يبوح باسم زميل، ولن يتعرف على رفيقه في السيارة.. إنه
مجرد عابر سبيل.. ولن يفضي بسر (الكروكي)^(١) الذي يحمله.. إنه
مجرد (شخايبط)^(٢) للعبة الكلمات المتقاطعة.

(١) المخطط.

(٢) كتابات وخطوط عابثة لا معنى لها.





صمد.. صمد.. حتى فقد القدرة على الكلام.. فاطمأن إلى
أنه أبداً لم يبيع..
أمام بيته الخالي من أهله.. هتكت الرصاصات مؤخر الرأس..
أرسلت الذاكرة آخر توهجها.. وأغلقت الصندوق على أسرارها.







